

كلمة التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

١- غالباً ما تطرح البحوث الخاصة بالنبوة بطريقتين: طريقة احتجاجية، وطريقة إيضاحية. ولدى الطريقة الاحتجاجية ننظر إلى المخاطبين على أنهم منكرون للنبوة، فن تعامل وأياهم كمخالفين.. وفي هذه الطريقة تشكل مجموعة بحوث مطلع الكلام وهيكلته، مثل بحوث إثبات النبوة العامة؛ وضرورتها والرد على شبهات الملحدين بها.. وبعد ذلك؛ يجري الحديث عن شؤون النبوة، وأهداف الأنبياء، ومعجزاتهم و.. ثم يكون البحث في النبوة الخاصة، ومعرفة رسول الله محمد ﷺ، وسيرة وفضائل ومناقب ومعجزات المصطفى المختار، لاسيما القرآن المجيد.

وفي هذه الطريقة؛ وبداعي الأجواء وحاجة المخاطبين التي عرفناها لهم؛ تكون وجهة الكلام والتأليف العامة - لاسيما في البحوث الابتدائية - اقناع وإسكات المخاطب الذي ينكر أصل الحاجة إلى النبوة أو نبوة خاتم الأنبياء.. وفي هذا الإطار؛ نجد المسلمين المؤمنين بنبوة خاتم الأنبياء، وكذا نجد أهل الكتاب المؤمنين بالأنبياء السابقين، يضعون عقيدتهم جانباً، ويتعاملون مع البحث تعاملاً فردياً منكرًا.. وفي هذه الشاكلة من البيان تطرأ أنواع النزاع والجدل الفكري الخاص بها.

٢- أما في الطريقة الإيضاحية؛ ننظر إلى الواقع الموجود، حيث يكون غالب مخاطبيننا يمتازون بالإيمان القاطع والكمال بنبوة جميع الأنبياء والنبي الخاتم؛ بل وإمامة أوصيائه بالحق.. ولعل هؤلاء؛ لا يجدون؛ أو لا يستطيعون إلدلاء بالبرهان والدليل المنطقي - كما هو منحنى أهل العلم والاصطلاح؛ قديماً وحديثاً - إلا أن نورانية كل حكمة من حكم الأنبياء والأئمة المتجذرة في نفوسهم ودواخلهم قد وجدوها متسقة ومباني فطرتهم، فيعدونها

دليلاً مقبولاً على صدق مدعي أولئك الحجج الإلهيين..

وإنه ليراعى في هذه الطريقة ويلاحظ أنه عبر آلاف السنين من الأطوار التاريخية للبشر؛ قد جاء أفراد وأدعوا النبوة؛ وفتحوا على الناس نوافذ الخير والرحمة والهداية.. فكانوا محط احترام وتقدير وإجلال حكماء كل حقبة في الحقب الزمانية، بغض النظر عن أن يكون هؤلاء الحكماء قد استوعبوا وأقروا بنبوة هؤلاء الأنبياء أم لا..

٣- بالنظر إلى هذه الواقعية؛ نجد الكلام - في الطريقة الإيضاحية - يبدأ من أنه:

- لماذا بُعث الأنبياء؟

- كيف كان أسلوب دعوة الأنبياء وإبلاغهم؟

- كيف كانت سيرة الأنبياء في حياتهم الخاصة، لاسيما في ما يرتبط بالدعوة والتبليغ؟

في هذه الطريقة؛ يتم اعتماد الآيات والروايات، وعلى الأقل من حيث أن حجج الله تعالى قد أدلوا بها على أنها كلام مُنزل من قبل الله سبحانه؛ وعرضوها على الناس.

وعلى هذا الأساس؛ لم ولا تتم مصادرة الآراء، إذ الهدف الأصلي في هذه الطريقة تكريس العقائد لا إثباتها، فكان أمر «أحياء الحقائق الفطرية» بدلاً من «إثبات النبوة بمعونة التفكير أو الفكرة البشرية»...

إن المهمة والمسؤولية الأصلية في هذه الطريقة قد حمّلت على عاتق الأهداف التربوية والأخلاقية والتحذيرية، دون عمليات التحقيق الأكاديمي والتحقيق البشري الجاف الذي لا ولم يحقق النتائج المرجوة..

ولقد نُفخت روح التنبيه والتذكير في جميع الأقوال والمدونات... حتى أننا لنعتبر نبوة النبيّ امرأ مسلماً وحقاً واضحة بالنسبة لنا بحيث نقبلها بأعماقنا ونصرخ بها من دواخلنا.. ولا نكتفي بها بمجرد لقلقة لسان أو بما تمليه علينا الأقاويل الأكاديمية..

٤- في باب النبوة؛ وبالطريقتين قد وردت مطالب مقولة ومكتوبة ومُدْرَسَة.. وكل واحد من المفكرين والعلماء، ونظراً لطبيعة مخاطبيه وللمسائل مورد الحاجة والابتلاء قد أدلى بدلوه.. فكان أجره محفوظاً عند صاحب الشريعة.. ولكن الكلام في مدى إيلاء الأهمية لتحديد طبيعة المخاطب، باعتبار ذلك مقدمة واجبة في جميع البحوث؛ وإن تمّ ذلك؛ فما دور الواقعية في هذا الأمر؟

فنقول: إذا عمل لدى المواجهة بالطريقة الأولى مع المجتمع الذي يدعي غالب أفرادَه -بالقول على الأقل- الإيمان بالنبوة، كان العمل كهواء في شبك، حيث تمّ تجاهل فطرة المخاطبين أولاً، مضافاً إلى أننا لم نحقق تطوراً ملموساً ومطلوباً لدى العمل وفق الطريقة الأولى..

٥- إنَّ نظرة إلى السيرة التبليغية لدى الأنبياء، وبالأخص لدى النبي الخاتم ﷺ.. تشير إلى أن هؤلاء الرجال الإلهيين العظام كانوا لدى مواجهتهم مجتمعات بشرية، لا يؤمن أكثر أفرادها بالنبوة، قد اتخذوا في أداء مهمتهم اسلوباً فطرياً، أي أسلوباً يخاطب الفطرة الإنسانية.. أما سعيهم في الاستدلال الفكري المحض أو في إتباعهم بالمعجزات، فهذا ما كان خاصاً حين مواجهتهم أفراداً لا يتقنون سوى العناد والجدال العقيم..

٦- وعلى أي حال؛ فإن أساس ومبنى دعوات الأنبياء كان (البصيرة): (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) [يوسف / ١٠٨]. والبصيرة هي النظرة والرؤية الإلهية التي يخطئ الإنسان بواسطته بـ (الفرقان): (إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا) [الأنفال / ٢٩]، أي: المعرفة الباطنية التي تُعين الإنسان وتمنحه القدرة على القول بالتفاوت بين الحق والباطل في مختلف شؤون الحياة..

وهذه البصيرة والفرقان يزود بها الأنبياء الناس على أساس العلم الإلهي الموهوب، وقد ورد في وصف الأنبياء: (أوتوا العلم) أي أنهم قد أعطوا العلم، لا على المبنى البشري كما يتعلّم أفراد الإنسان من قبل المعلّم، أو طرق أبواب المدارس ودور العلم..

٧- إن هذا العلم المعطى والموهوب؛ عبارة عن هداية إلهية تمنح للناس، ثم يطالبون بعد ذلك بالإيمان.. وكلّ من لا يلمع هذا الإيمان المطلوب من وفي داخله؛ يكون غير مهتدٍ، ولا يدخل دائرة الإيمان والمهتدين، إذ لم تثمر فيه جهود الأنبياء ومساعدتهم..

(إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنِ يَخْشَاهَا) [النازعات / ٤٥].

(إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ) [يس / ١١].

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ) [فاطر / ٢٢].

أما المتجاوب مع نداء الفطرة والعقل، فإن الله تعالى يضاعف الهداية..

(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) [محمد ﷺ / ١٧].

وهكذا؛ كان القرآن الحكيم الذي هو كتاب هداية؛ سبباً لهداية أهل التقوى؛ أي: القابلون والمستوعبون للهداية الأولى:

(أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) [ص/٢٨].

وكذلك كانت للنبوّة علاقة وطيدة وغير قابلة للانفكاك عن العبودية. وهذه الحقيقة هي أصح ما ذكره القرآن الحكيم، إذ كانت أولى بنود دعوة الأنبياء هي الدعوة إلى عبودية الله الواحد الأحد.. وما يلزمها في البراءة من جميع ما يُعبد من دونه سبحانه.

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) [النحل/٣٦].

٩- في هذه الطريقة، يمكن الاستيقان بأنه من أجل مواصلة دعوة الأنبياء، لا بد من الإيمان بأصل (الإيصاء والاستخلاف) كأصل لا يسع كل عاقل حرٍ منصف أن يتصور عدمه.. والأوصياء كما الأنبياء حجج الله بالحق وبتلك الخصائص والشؤون. وكذا هي مسؤوليات الناس ووظائفهم تجاه هذين الفريقين من الحجج الإلهيين - حيث وجوب الإيمان بهم والالتزام بتعاليمهم - على السواء.. ولذا؛ فقد كان الترابط بين النبوّة والإمامة - باعتباره أصلاً مقبولاً من العقل - ترابطاً واضحاً جلياً ثابتاً أبدياً تصرخ به النصوص الدينية على المدى..

إذن؛ فالنبوة عبارة عن وجه لميثاق هداية الموهبة الإلهية.. ومن هذا الوجه يُرى كل جمال هذا الميثاق.. يُرى بعين القلب، وفيه نرى عمق اعماق الحقيقة...

١٠- ولكي نعرف النبوة بهذه الطريقة.. لا بدّ - بدءاً - من أن نعرفها بكل وجودنا ونتمسك بها.. وهذا الهدف لا يتحقق إلا بالإيمان الكامل بمولانا خاتم الأوصياء - عجل الله فرجه - الذي سيحقق أهداف جدّه الأكبر مولانا خاتم الأنبياء.. ويفعل أصل العبودية لله بصورته الثابتة في جميع أرجاء الوجود.. وهو الذي من دونه ستكون نبوة الانبياء بتراء..

قال إمامنا أبو محمد الحسن العسكري (عليه السلام):

«أَمَّا إِنَّ الْمُقَرَّبَ بِالْأَيْمَةِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ الْمُنْكَرِ لَوْلَدِي كَمَنْ أَقْرَبَ بِجَمِيعِ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ثُمَّ أَنْكَرَ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالْمُنْكَرُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَمَنْ أَنْكَرَ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ لِأَنَّ طَاعَةَ آخِرِنَا كطَاعَةِ أَوَّلِنَا وَالْمُنْكَرُ لِآخِرِنَا كَالْمُنْكَرِ لِأَوَّلِنَا» (بحار الأنوار، ج ٥١، ص ١٦٠).